

محمود درويش

خضراء أرض قصيدتي خضراء نهر واحد
يكفى لأهمس للفراشة آه ، يا أختي ، ونهر واحد
يكفى لإغواء الأساطير القديمة بالبقاء على جناح
الصقر ، وهو يبدل الرايات والقمم البعيدة ، حيث
أنشأت الجيوش ممالك النسيان لي ، لا شعب أصغر من
قصيدته ، ولكن السلاح يوسع الكلمات للموتى
وللأحياء فيها ، والحروف تلمع السيف المعلق في
حزام الفجر ، والصحراء تنقص بالأغاني أو تزيد

obeikandi.com

محمود درويش أمام القضاء الفرنسي(*)

كان عجبوا وحزينا في زيارته الخاطفة هذا الأسبوع إلى القاهرة .

- من أين يأتيك الحزن ؟

من مسام جلدى .

- ومن أين يأتيك الفرح ؟

من بكاء الأطفال القادمين إلى الجحيم ، ومن أحذية المقاتلين الذاہيين إلى الجنة .

- الأسئلة كثيرة .

زمنى ضيق ، وحالتى النفسية أضيق .. هذه المرة سأعتذر فلست مهياً للكلام .

- لكن اتهاكم بالعنصرية .. يزعجنا .

سأكتفى بهذا السؤال .

(محاكمة محمود درويش) ...

هكذا جاء الخبر من فرنسا ، فقد رفعت لجنة العمل اليهودى هناك دعوى قضائية ضده بتهمة التحريض على (العنصرية) والسبب مقال نشره فى جريدة اللوموند تحت عنوان (سؤال إلى الضمير اليهودى) وفيه يناقش (ليفيزل) الكاتب اليهودى الحاصل على جائزة نوبل ، والذي

(*) جريدة الأهالى - القاهرة ١٩٨٨ م .

قال (إنه يحزن عندما يرى الجندي الإسرائيلي مضطراً لقتل طفل عربي) !
أى إنه كان يدعو الإعلام الغربى للبكاء على المقاتل الذى اضطر لقتل
الضحية !!

وفى مقال درويش استخدم تعبيراً . . إن الضمير اليهودى ملطخ
بوحل الاحتلال ما لم يعلن القطيعة مع الاحتلال . . وإن مقياس النظر
إلى الضمير اليهودى هو مدى ابتعاده عن الاحتلال الإسرائيلى .
ورغم أن المقال نشر منذ ٦ أشهر بهدوء فى اللوموند الفرنسية ، إلا أن
الإسرائيليين قرروا بدء الحملة الإعلامية .

وللحكاية بداية أخرى . . وهذه المرة على صفحات جريدة (يدعوت
أحرنوت) الإسرائيلية . . حيث نشرت الصحيفة قصيدة درويش عن
الانتفاضة (عابرون .. فى كلام عابر) مترجمة إلى اللغة العبرية . .
وبعد شهر من نشر القصيدة . . نشرت جريدة (معاريف) الإسرائيلية
خبراً آخر يقول : إن محمود درويش نشر قصيدة ، يدعو فيها إلى رمى
اليهود فى البحر ، ويقول إن على الإسرائيليين أن يأخذوا عظام موتاهم
ويرحلوا عن أرض فلسطين .

وفى اليوم التالى لنشر الخبر . . لم يبق كاتب إسرائيلى واحد
إلا وكتب مقالاً هجومياً حول القصيدة . . وتطور الهجوم والعنف إلى
حد طرح الموضوع على الكنيست ؟

- ما معنى هذه الحملة الإسرائيلية ؟

طبعاً هى حملة على ما أمثله وهى محاولة للإعدام الأدبى ، ولتجريد
الفلسطينى من المستوى الإنسانى ولضرب مصداقية خطابه فى الضمير
العالمى . . فعندما يقدم (بيريز) تقريراً عن زيارته لواشنطن ومباحثاته مع

ريجان . . ويبدأ خطابه بحملة علىّ ليصل خطابه إلى قول (إن لا معتدلين في الصف الفلسطيني وانهم يدعون لرمينا في البحر) .

وعندما تنشر جريدة (يدعوت أحرنوت) ما نشيت رئيسي يقول (إن قصيدة درويش قد وحدت الكيتم) ، وطبعاً لست من الخفة بقدر أن أصدق أن قصيدة من ٢٠ سطرأ تهز المجتمع الإسرائيلي إلى هذا الحد . . لكنها حملة مصطنعة ؛ من أجل إعادة الأسطوانة القديمة بأن العرب لا يرضون بأقل من رمى اليهود في البحر .

هذا من ناحية . . أيضاً هذه الحملة هي جزء من النقاش الإسرائيلي الداخلي ، أراد شامير والحكم الإسرائيلي أن يحطم بها جبهة المثقفين اليهود ، الذين اجتمعوا حول ضرورة الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير ، وفي ضرورة الانسحاب الإسرائيلي من الضفة ، وإنهاء الاحتلال فوراً ، والذي كان أحد أشكال التعبير هو ذلك البيان ، الذي وقع عليه ١٢٠ كاتباً إسرائيلياً ، وهو ينص على ثلاث نقاط :

١ - الانسحاب من المناطق المحتلة في ٦٧ بما فيها القدس .
٢ - الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير ، وإنشاء دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس .

٣ - إن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني ؛ لذلك لجأ (شامير) إلى قصيدتي ؛ لاستخدامها للرد على هذا الوعي الجديد لدى الكتاب الإسرائيليين . .

- ربما محاكمة فرصة لنا أيضاً لمحاكمة العنصرية الإسرائيلية ؟

هي مناسبة لكي نضع المفارقة في قفص الاتهام . . والمفارقة هي أن الفلسطيني ، وهو ضحية العنصرية هو المتهم بأنه (عنصري) . .

المحاكمة ستكون مثيرة للاهتمام . . وخطورتها أنها حملة إعلامية نفسية ضد إنسانية الفلسطينيين . . ضد حقه في التعبير . . هل تتخيل أن حق التعبير الفلسطيني لا يمر إلا من خلال علاقته بالإسرائيلي . .

الإعلام الغربي مهتم بالقضية الفلسطينية فقط لأنها فى صراع مع إسرائيل . . يجب أن يكون الإنسان صديقاً للإسرائيليين أو عدواً ؛ حتى يسمح له بالكلام . . مفارقة أيضاً غريبة ومن طراز فريد !

- أظنك بعد ذلك عدلت عن فكرة الحوار مع اليسار الإسرائيلي ؟

الحوار مع اليسار الإسرائيلي ومع أى قوى إسرائيلية تعترف بمنظمة التحرير وبحق الفلسطينيين فى تقرير المصير ، هو سياسة رسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وأنا لست ملتزماً بهذه السياسة ، ولكنى لا أستطيع أن أرحب بأى حوار مع الكتاب الإسرائيليين ، الذين شاركوا فى هذه الحملة المصطنعة ، ولا أستطيع أن أقبل أن يتقدم الاحتلال الإسرائيلى بصفته احتلالاً (مضطهداً) ؛ لأنه للأسف أن هؤلاء المنافقين من الكتاب الإسرائيليين يتقدمون باعتبارهم ضحية أحلامى فى استعادة وطنى . . من هنا فالحوار لا يقف على أرضية متينة . . وإنما هو تعبير عن رغبتهم فى الخروج من مأزق أخلاقى ، أوقعهم فيه الاحتلال ، ولكنهم يريدون أن يطالبوا الضحية بأن يعترف بأنه جلاذ . . ولذلك فأنا حتى إشعار آخر ، لا أستطيع أن أتعامل بهذا الفهم المقلوب فى حقيقة الصراع بيننا وبين الاحتلال الإسرائيلى . .

أنا لا أقول أننى سأحاور اليسار الإسرائيلى . . أو أننى لن أحاورهم كما أننى أصلاً ومن البداية لم أقم أى حوار معهم . .

- إذا فلا سلام .. حتى ولو سلام عادل ؟

أنا لا أظن أن هناك حلاً عادلاً للقضية الفلسطينية ، منذ قرار التقسيم وحتى مشروع فاس .. هناك دائماً سلام ممكن واقعي ، ولكن ليس هناك سلام عادل ..

فالتاريخ لا يحركه العدل ، وإنما تحركه موازين القوى ، ولأول مرة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي تطرح الانتفاضة إمكانية حل ممكن وحل واقعي وليس حلاً عادلاً .. لأنه مهما كان شكل الحلول الممكنة الآن ، فلن يكون الحل عادلاً للطرف الفلسطيني ؛ فالطرف الفلسطيني هو المتنازل ..

- لكن الانتفاضة طرحت الحل الواقعي ، وأكدت بديهية أن الوطن هناك في الوطن ؟

الإنسان لا يختار ظروفه وتاريخه .. هو نتاج ظروف وتاريخ ، ولذلك فإن العمل الفلسطيني في الخارج كان رداً على ظروف موضوعية ، وعندما كان الخارج يؤسس الأداء السياسي الفلسطيني وأسميه (الوطن المعنوي) للفلسطيني ، والممثل في الشخصية الوطنية وتعبيرها السياسي ، لم يكن ذلك نقيضاً للداخل ، وإنما كان ذلك أحد أشكال الطرق الخارجية المؤدية إلى الطريقة الداخلية إلى أن انفجرت كل عوامل الداخل المحتقة بهذه الحلقة المتصاعدة في سياق التاريخ النضالي للشعب الفلسطيني ، وبالتالي أنا لا أرى ضرورة للمفاضلة بين الداخل والخارج .. الداخل من الخارج والخارج من الداخل وكل عملنا في خارج الوطن أو حول الوطن هو من أجل الوصول إلى هذه الحالة التي

يعيشها الداخل . . . وبالتالي فإن الإحباط الذى كنا نشعر به ، كلما اضطررنا للانتقال من مؤقت إلى مؤقت آخر . . . هذا الإحباط لم يعد له من ضرورة ، ما دام الداخل قد أمسك بزمام المبادرة . . . إن الانتفاضة نجحت فى إعادة الموضوع الفلسطينى إلى صلب الاهتمام العربى اليومى ، وإلى المكانة الأولى فيما يسمى بأزمة الشرق الأوسط بالنسبة للوعى العالمى .

هذه البديهية (بأن الوطن لا يوجد إلا فى الوطن) وكل بديهية فى حياتنا تحتاج إلى ما يشبه المعجزة . . . فهى ليست رداً أو محاكمة شعرية . . . هى أكثر تعقيداً من ذلك . . . فالوطن يرحل من الوطن ويعود إلى الوطن . . . هو صيرورة فى الوعى ، وليس عملية جراحية . . . الآن الوطن قادر على أن يعود إلى مكانه ، وهو أخطر ما فى الانتفاضة . . .

إن فلسطين انتقلت من : الأسطورة والخرافى والنص الأدبى إلى المكان . . . إلى الواقع ، وعلى المثقفين والأدباء العرب أن يعوا جيداً أن التضامن مع فلسطين هو تضامن مع مطالب وطنية محددة ، وليس الهروب إلى شعارات بعيدة . . . عليهم أن يعوا أن الفلسطينيين هم مجتمع خاضع للاحتلال فى الداخل ، ويطالبون بجلاء الاحتلال ، وبحق تقرير المصير ، وبإنشاء دولة فلسطينية . . .

تضامنا الحقيقى مع الانتفاضة هو أن تتبنى مطالب المتضامين .

- ساكتفى بتصرّياتك هذه حتى موعد اللقاء القادم ...

يحطم صورته الخرافية المصلوبة فى الجليل (*)

مثلما يحمى الشاعرية من الشاعرية ، سأحمى العاطفية من العاطفية ، وأخبنى انحيازى لمحمود درويش وديوانه الجديد (جدارية) ، الصادر قبل ٣ أشهر عن دار «رياض الريس» .

سأتجنب أزمته القلبية الحادة ، ، التى مر بها عام ١٩٩٨ بباريس ، ملامساً الموت عن قرب . . برغم أن الديوان الجديد هو قصيدة واحدة طويلة ، هى التجسد الجمالى لتلك المنازلة الصعبة . وهو أيضاً استمرار لجملة الجمالية فى الدواوين السابقة . . فمن (سرير الغربية) ١٩٩٩ والتفاتة إلى شئون قلبه العاشق إلى (جدارية) ٢٠٠٠ والتفاتة إلى شئون قلبه المتعب ، يواصل محمود درويش مشروعه الشعرى واقتراحه الجمالى صوب انتقال القصيدة والسؤال الثقافى الفلسطينى بأكمله من وضعه الأسطورى إلى وضعه الواقعى والإنسانى .

يقول محمود درويش فى إحدى اللقاءات مع الجمهور عام ١٩٩٧ بباريس :

« بدأنا فعلاً بطرح أسئلة تتصل بطبيعة تحولنا من نص أسطورى فيه الجلال والضحية إلى إناس عاديين ، بنى حياتنا العادية ، نعبر عن ضعفنا الإنسانى العادى ، يلتفت كل منا إلى صوته الشخصى ، نشكو المرض

(*) أخبار الأدب - القاهرة - ٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٠ م .

والكل والضجر ، لا نريد أن نكون أبطالاً ولا نريد أن نكون ضحايا . .
بعبارة أخرى بدأنا فى البحث عن الحياة العادية » .

فى « جداريه » يعود محمود درويش إلى القصيدة الواحدة . .
القصيدة الديوان بعد سلسلة طويلة من القصائد القصيرة عبر الدواوين
الأخيرة (ورد أقل) ١٩٨٦ ، (هى أغنية .. هى أغنية) ١٩٨٦ ، (أرى
ما أريد) ١٩٩٠ ، (أحد عشر كوكباً) ١٩٩٣ ، (لماذا تركت الحصان
وحيداً) ١٩٩٥ ، (سرير الغربية) ١٩٩٩ . . لكنه يشارك فى (جدارية)
تلك الدواوين جميعاً ؛ خاصة الأخيرين فى وحدة الموضوع وذلك
الصعود للأنا الفردية ، ومواصلة الإيغال فى الذات فيما يشبه كتابة
السيرة الذاتية .

فى (جداريه) يواجه درويش تجربة الموت واقتراب النهاية بطاقة أكبر
على الحياة ، بذاكرة حية ولغة تمنحه الكينة ودقة المعنى والخلود .
يستعيد البدايات دائماً الطفولة الأولى ، الأساطير ، الحكايات
التاريخية ، الإشارات القرآنية والمحيية لتضىء الذاكرة سيرته الذاتية ،
ليس فى تاريخها الشخصى العائلى (كما فعل فى « لماذا تركت الحصان
وحيداً » وفى « سرير الغربية ») ولكن فى تاريخها الثقافى وحقول
معارفها وحضارتها . . هكذا يطل « طرفة بن العبد » و « امرؤ القيس »
و « المعرى » ، كما تطل الحضارة الفرعونية والبابلية من خلال أسطورة
(جلجامش) و (أوزوريس) . . وفى استعادة شخصيات الأسطورة
محاولة للإمساك بالبداية ومحاورة قصص الخلق الأولى . . لتمتزج
السيرة الذاتية بالسيرة الإنسانية .

هل هو اقتراب النهاية الذى لامسه أخيراً هو ما دفعه إلى سؤال الوجود والقصيدة ومعاودة البدايات ؟ أم هى مواصلة الاقتراح الجمالى الذى بدأه فى الدواوين الأخيرة السابقة ، يحطم صورته الخرافية المصلوبة بالجليل ، صوب صورة أبسط وأعمق إنسانية .

هذا هو اسمك

قالت امرأة

وغابت فى الممر اللولبي

أرى السماء هناك فى متناول الأيدى

ويحملنى جناح حمامة بيضاء .. صوب

طفولة أخرى

(هذا اسمى) يكرر درويش طوال الديوان متوقفاً أمام اسمه المكون من ٥ أحرف أفقية التكوين متأملاً أحرفه حرفاً حرفاً . . تكرار نلمح فيه (تأمل النرجس فى ماء صورته) .

١٤٠٠ مركبة

١٢,٠٠٠ فرس .

تحمل اسمى المذهب من زمن نحو آخر ،

لكن تكرار الاسم بالديوان يحمل دلالات أخرى أبعد من حدود النرجس . . فالجسد بطبيعته مؤقت وزائل ، بينما يحمل الاسم ضمان الخلود لصاحبه ، ويحمل طاقة الرمز وخطى المعرفة تلك التى بدأ بها آدم صعوده وتمايزه منذ علمه الله الأسماء كلها .

هل هى الحفاوة بالتجريد الأعلى للرمز متمثلاً فى (الاسم) ؟ أم هى الحفاوة بدقة المعنى وتسمية الأشياء بمسمياتها ؟ أم هو اجتماع الضدين فى مفردة واحدة ؟

وإذا كانت (الجدارية) هى نقش أو رسم على جدار ، يردنا للشواهد ،
فإن وضع (الاسم) هو تحديد وتعين ، انتقال من سديم لا يحد إلى
وضوح المحدد من مجهول إلى معلوم مسمى .

ولأن تجربة الديوان هى (غبش بين بابين : الدخول والخروج) الحياة
والموت . . فإن الجدارية محض شاهد فى لحظة الانتقال هذه بين شاطئ
الموت وشاطئ الحياة . . إنها شاهد بعث ، وشاهد ميلاد ، ولهذا يبدأ
الديوان بتحديد الاسم (هذا هو اسمك .. قالت امرأة) .

ويردنا تكوين الجملة فى (هذا هو اسمى) إلى عنوان قصيدة أدونيس
الشهيرة بديوان (وقت بين الرماد والورد) . . وربما تذكرنا تقنية الأحرف
المفككة بشعراء آخرين . . لكنه الدرس الجمالى ليس فقط فى فاعلية
تناصه ولكن فى قدرته على تحرير اللغة . وتحرير المفردة من كل
محاولات امتلاكها أو احتكارها لحساب فرد أو ذاكرة .

(هذا هو اسمك) . . . وغابت امرأة لتتركه فى البياض المطلق
وحيداً . . يشد النهاية للبداية ، ويجدد طيرانه مستعيداً رحلته إلى الحرية
من حلم إلى حلم ، كلما (احترق الجناحان اقترب من الحقيقة) لينبعث
من الرماد مرة أخرى ، جديراً بحياته وسعيها الطويل ليكون ما سيصير . .
لم يولد ليعرف أنه سيموت ، بل ليحب محتويات ظل الله يأخذه
الجمال إلى الجميل . . ويستعيد صورة الشاعر الذى أراد يوماً أن يصيره
(لغته مجاز للمجاز لا يقول ولا يشير) . . شريط طويل من الذاكرة الحية
الجديدة ، الذاكرة الصديقة . .

فنحن القادرين على التذكر قادرون
على التحرر ، سائرون على الخطي
جلجامش الخضراء من زمن إلى زمن

تؤكد (الذاكرة) (الحلم) ليلتقى الزمان (الأمس والغد) ، أو تلتقى
المسيرتان (الشخصية والإنسانية) في زمنية واحدة هي شرط الوجود
حيث الموت هو العدم ، . أبدية بيضاء لا زمان ولا عواطف ، على حين
يظل الزمن شرطاً للحياة أو بتعبير هيدجر (الوجود هو الزمن) .

ولعل الإشارة إلى الفيلسوف الألماني الوجودي (هيدجر) وهي
الإشارة الوحيدة بالديوان التي خص فيها درويش مفكراً أو كاتباً غريباً إلى
جانب الشاعر الفرنسي (ريني شار) تكشف الإشارة عن عمق العلاقة
بفلسفة هيدجر حيث (الإيغال في الذات) وحيث الزمن هو شرط
الوجود ، والوجود هو (الوجود مع) :

كلما فتشت عن نفسي
وجدت الآخرين ، وكلما
فتشت عنهم ، لم أجد منهم
سوى نفسي ،
الغريبة
هل أنا الفرد الخشود ؟

إن الإيغال في الذات المتواصل يكشف دائماً عن حضور الآخر . .
هكذا يجابه درويش الموت برغبة مضعمة بالحياة لترميم القلب من أثر
الجفاف العاطفي ، ولإتمام قراءة طرفة بن العبد ومواصلة العمل على ظهر
السفينة .

إنها الحياة مشروطة بالآخر فى مواجهة العدم ، الوحيد فى البياض . .
ورغم استدعاء (هيدجر) فى إطار صورة شعرية ، يجالس فيها
الشاعر رينى شار ، فى إحالة إلى صيحة هيدجر الشهيرة (الشعراء فقط
هم الذين سيخلصوننا) حيث الشعر هو (صناعة الكلمات من صمت
الصوت ، وهو ما يبنى بيت الوجود) أى (اللغة) . .

ورأيت رينى شار
يجلس مع هيدجر
على بعد مترين منى
رأيتهما يشربان النبيذ
ولا يتحدثان عن الشعر

رغم صيحة هيدجر . . فإن محمود درويش لا يلتفت كثيراً للشعراء
المخلصين وتلك الصيحة ، يلتقى بهيدجر فى الحفاوة باللغة (بيت
الوجود) إلى حد التساؤل : هل الموت هو ما يكون أم أنه موت اللغة ؟
بل إن ما يشغله حين يقترب الموت هو سؤال ثقافى محدد : (ما لغة
الحديث هناك ، دارجة لكل الناس أم عربية فصحي) ، وهل كتاب واحد
يكفى مع اللاوقت أم مكتبة كاملة . .

أما الشعراء الذين سيخلصوننا . . فإن درويش يناهض صورة الشاعر
المخلص ، تلك الصورة الأسطورية التى يواصل منذ سنوات بعيدة
الخروج عليها نازلاً عن صليبه ، لا يرجو العلو ولا يبشر بالقيامة . .

يكسر صورة (البطل) ، (الميح) ، (الضحية) . . يكسر صورة
الشاعر (النبى) لحساب الإنسان العادى (لست أنا النبى لأدعى وحيّاً ،

وأعلن أن هاويتي (صعودى) . . إنه يريد أن يحيا كإنسان حر ، يواصل عمله ، وينتقل من حلم إلى حلم ، ويشهد الناجون من الطوفان . . يحيا كإنسان عادى ، ينقذ القلب من جفافه العاطفى ، ويتمم قراءاته يحيا لينخرط فى حياة تتجدد .

وأريد أن أحيا

فلى عملى على ظهر السفينة .. لا

لأنقذ طائراً من جوعنا أو من دوار البحر

بل لأشاهد الطوفان

عن كئيب . وماذا بعد ؟ ماذا

يفعل الناجون بالأرض العتيقة ؟

لقد تغيرت طريقة النظر إلى الواقع ، ليس فقط على المستوى الأيديولوجى ، ولكن على مستوى التحول اللغوى أيضاً ، مخالفاً كل توقع جمالى ، معيداً إلى اللغة حياة أخرى لم تكن موجودة سابقاً ، إنه يخرج من فعل استسلام اللغة (لتشابه الرمل) يخرج عن غمطية الكتابة كرد فعل . . الكتابة المقاومة للمحتل والتي تحولت إلى (كلاسيكات) يجب هدمها ؛ لإعادة بناء وتشكيل واقع لغوى مغاير ومختلف ، يخترق الحاجز ويمارس حياته العادية .

ليخترق الحاجز ويمارس حياته العادية ، حياته الإنسانية بحرية كاملة هى فى جوهرها مقاومة لشرط الاحتلال .

لقد تم تعديل صورة البطولة ومقاومة المحتل بالصورة الإنسانية ، وهو التحول الذى وصفه درويش على مستوى اللغة بأنه (حماية الشعرية من

الشعرية) حيث لا يتجيب للغنائية وتدفق الإيقاع والنغمة ، بل يقوم على العكس بكبح جماحها فى نوع من الاقتصاد الجمالى أو (التقشف) كما يحب أن يسمى تحركه الجمالى الأخير . . هكذا يخطو متعمداً نحو نثرية عفوية تكبح الصورة . . .

هزمتك يا موت الفنون جميعها
هزمتك يا موت الأغاني ، فى بلاد
الرافدين ، مسلة المصرى ، مقبرة الفراعنة
النقوش على حجارة معبد . هزمتك
وانتصرت ، وأفلت من كمائنك
اخلود .

ولعل شاعرية تلك الجملة تتجلى فى حالتها الإنسانية وعمقها
الحضارى أكثر من تجليها فى مفرداتها الغنائية .

* * *

الشعر اختصاصي(*)

لا يحتاج محمود درويش إلى تقديم ، كما لا يحتاج الحوار معه إلى مناسبة . وبمعنى أصح . . فإن كل فرصة للحديث معه هي لحظة مناسبة تماماً .

ومع ذلك فلدينا المناسبة ؛ إذ يأتينا درويش هذه المرة من رام الله حافة الوطن وعمق الزنزانة ، شاهداً الصراع اليومي غير المتكافئ بين أحجار الصبية ، التي تحاول رسم حدود الوطن القادم ، وقنابل الاحتلال وطاولات المفاوضات التي تحاول تثبيت أشع سرقة في التاريخ ، كما يأتينا درويش وقد كتب « جدارية » التي أرادها معلقته ووصيته الشعرية . وإذا كان درويش يصبر دائماً على رهانه الشعري دون غيره ، فإن قدر شعره الارتباط بقضية بلاده ، لا يفارقها وإن حرص الشاعر .

عن القصيدة ، القضية ، السلطة ، وحرية الإبداع سألنا درويش ، وأجابنا بما نعتقد أنه جديد يستحق أن يطلع عليه قراء « أخبار الأدب » .

- نبدأ من يومك العادي في رام الله .. إلى أى مدى وصل استقرارك ..
علاقتك بالقراءة والكتابة .. هل تشعر بالفعل أنك داخل وطنك ؟

ليس بعد ، أبذل كثيراً من الجهد النفسى لكى أتدرب على الإحساس الحقيقى ، بأننى فعلاً عدت ، وأننى فى وطنى ، ولكن لا أنجح دائماً ، لأننى لم أعد بالمفهوم العميق والشخصى ..

(*) أخبار الأدب - القاهرة - ١١ / ٢ / ٢٠٠١ م .

شارك فى الحوار الزميل عزت القمحواوى .

أنا لم أعد إلى مكان خرجت منه ، لم أعد إلى مكان تربطني به علاقة شخصية ، ماضى ، ذكريات وما إلى ذلك مما يكون ملامح الوطن الشخصى لكن على مستوى الوعي أنا سعيد بأننا استطعنا العودة إلى جزء من هذا الوطن ، أما العودة الحقيقية برأى فهى بثيت حق العودة للاجئين أو النازحين . . أى العودة الجماعية .

أما على المستوى الفردى فتلك مسألة سجالية داخل كل واحد منا . . العودة بهذا المعنى متحيلة ، فلا أحد يعود إلى ما كان وإلى من كان .

وأنا أيضاً لا أقبل اختزالى بمهاجر وعائد ، وإلا كان ذلك يعنى أن حياتى أو تجربتى الشعرية أغلقت دائرتها . . وهذا يعنى أن الوطن يحمل تعريفاً بأنه عكس المنفى ، وبأن المنفى عكس الوطن . . المسألة أكثر تركيياً من ذلك . . ولا نحتاج إلى استعارة أبى حيان التوحيدي فى النقاش حول مفهوم (الغربة والغريب) .

- لكنك تمنيت المنفى فى الوطن .. تمنيت الشرطى والأسوار والسجون ؟

تمنيت ذلك لسبب بسيط ، لكى نتحول إلى أناس عاديين وطبيين . . فالإنسان لا يتحرر تحرراً طبيعياً ، إلا إذا حقق شروطاً يستطيع فيها أن يعبر عن رفضه لوطنه .

الإنسان الحر هو الذى يتمتع بوطن له حق التصرف برفضه أو قبوله ، ولكى يبلغ هذه الدرجة من الحرية لابد أن يكون له وطن .

لكن كما قلت هذا الوطن لم يتحقق بعد . . فمازلنا على رقعة من الأرض ، هى ما أسميها ساحة خلفية للوطن يمارس عليها الشعب الفلسطينى شكلاً من أشكال السلطة الأولية . .

مازلنا داخل أقصاص غير متصلة جغرافياً ، مازال الوطن محتلاً . .
السيادة الفلسطينية لا تتجاوز ٢٪ من الضفة الغربية وغزة . . لا يمكن أن
تقسم الوطن إلى A, B, C ، فحتى الشروط الأولية الجغرافية والسياسية
لتحقيق مفهوم أعمق للوطن هي غير متوافرة حتى الآن .

- منذ عودتك وهناك متغير جديد هو الانتفاضة ، كيف تمارس يومك
العادي في ظل المواجهة اليومية ، وحشية الرد الإسرائيلي ؟

يوم من أيام القلق العادي فقد تحولت هذه الحياة إلى غمط غير مفاجئ ،
لأن الإغلاق والحصار موجود قبل الانتفاضة وأثناء الانتفاضة وبعد
الانتفاضة . . ومازال للإسرائيليين حق الإشراف على مخارج ومنافذ
المدن والقرى . . والدخول إلى فلسطين لا يزال يمر عبر البوابة الإسرائيلية
. . هذا النمط من حياة الإغلاق قائم دائماً . . ربما اشتدت وطأته حيث
حول الحصار الوطن إلى معتقل .

تخدير الإحساس

- والموت اليومي .. ألا يطرح سؤال إلى متى وكيف يمكن ترشيده ؟

أصبح الموت مللاً دموياً ، يحزن بعض المشاهدين ويسلى البعض
الآخر ، تحول إلى صورة تليفزيونية . . وكان يؤلنى كثيراً طريقة المشاهدة ،
فقد اعتاد الناس هذا المسلسل ، وعندما تكون الحلقة أضعف درامياً ؛ أى
أن يكون عدد الشهداء أقل ، كان بعض الجمهور يصاب بالإحباط ،
وكنت دائماً أتساءل ، ما النسبة المثوية للموت التي تجعل العمل الدرامي
صالحاً للمشاهدة ؟!

وفى تحول الانتفاضة إلى (صورة) يجب أن تتطور باستمرار ،
والفصل القادم يكون أكثر عنفاً وأكثر جاذبية من الفصل السابق ، أمر
يعبر - لا أقول عن عجز ولكن - عن تحول الجريمة إلى مشهد شبه عادى
.. كما حدث فى حرب الخليج حيث استطاعت C.N.N أن تحول الحرب
إلى ألعاب نارية .. قنابل برتقالية على خلفية دخانية سوداء .. ولأنك
لا ترى الموت .. فإن ما يبقى فى الصورة جماليات خطيرة جداً .. تقتل
الضمير وتخدر الإحساس بالغضب .

- خارج الصورة التليفزيونية الخطرة كيف رأيت أنت الموت اليومى ..
مذبحة أم انتفاضة ؟

من جانب الفلسطينيين الانتفاضة عمل بطولى ، لأن الفلسطينيين
وصلوا إلى مرحلة من الإحباط جعلتهم يعبرون عن إصرارهم على
تصحيح عملية السلام .. لأن شروط السلام الإسرائيلى غير مقبولة
على الإطلاق .

ولن يكون صحيحاً التسرع فى اعتبار الانتفاضة ضد السلام ، ولكنها
ضد السلام الإسرائيلى وليس ضد السلام المرتبط بشروطه الحقيقية وهى
العدالة والتحرر .

كان الفلسطينيون الذين أحسوا أنهم أدخلوا إلى نفق مظلم .. كان
عليهم أن يكسروا هذا الطوق ، ولهذا كان الانفجار الذى لم يكن كله
عفوية .. ولكن انفجاراً واعياً .. الانتفاضة ليست بطولة عبثية ولكن
بطولة واعية .. كانوا يعرفون أنهم لن يصححوا شروط السلام ، إلا إذا
عبروا عن ذلك بإرادة ووعى .

أما من جانب إسرائيل فكان التعامل معها طبعاً سلوكاً إجرامياً . .
القتل محدد يومياً .

- ربما لم تكن الانتفاضة ضد السلام الإسرائيلي فقط ، ولكن في جزء منها
كانت موجهة ضد سلام السلطة الفلسطينية أيضاً ؟

متفقون على أن الانتفاضة ضد السلام الإسرائيلي وإذا كانت هناك
تداعيات لمفهوم السلام الإسرائيلي لدى بعض الأوساط والمسؤولين
بالسلطة يصبح هذا الشمول صائباً . . لكنى لا أستطيع . . ضميرى
لا يسمح لى أن أقول بأن السلطة الفلسطينية قد قبلت مفهوم السلام
الإسرائيلي . . بل إن موقف السلطة السياسى منذ كامب ديفيد حتى
الآن ، وموقفها التفاوضى يلتقى مع مفهوم الانتفاضة وبالتالي أنا لا أرى
تناقضاً بين الانتفاضة والسلطة ، بل أكاد أقول إن هذه الانتفاضة هي
السلطة ، أما إذا كان بعض المسؤولين الفلسطينيين يقبل السلام الإسرائيلي
فالانتفاضة توجه له رسالة مضادة .

- لكن ذلك ما حدث - فالذهاب إلى واشنطن على خلفية الاعترافات
الأخيرة لكليتون ، حيث لاحق عودة ولا قدس هو قبول للتفاوض على
ما دون الحد الأدنى ؟

أولاً السلطة الفلسطينية - وياسر عرفات بالذات - لم تقبل بأفكار
الرئيس كليتون . . لكنه أبدى رفضاً بطريقة إيجابية حيث طرح
تصحيات وتفسيرات تصلح مدخلاً للتفاوض . . إذا كانت (نعم)
مشروطة بشروط تتنافى مع الأفكار نفسها ، وكانت عملية دبلوماسية
دقيقة نجا فيها عرفات إلى حد ما من كثافة الضغوط الأمريكية ، وبعض

الضغوط الإقليمية المتأثرة بالموقف الأمريكي . . أنقذ الوضع الفلسطيني وأنقذ نفسه من أزمة ، كان يوسعه أن يورثها للإدارة الجديدة بإعلان أن المسئولين عن تعثر عملية السلام هم الفلسطينيون ، وهو ما تحاشاه عرفات .

أما أن يكون في الانتفاضة تناقض مع السلطة . . فذلك موضوع مؤجل . . ستكون الانتفاضة ضد السلطة في حالة قبول السلطة بشروط السلام الإسرائيلي .

صدام القداسات

- لكن الواضح الآن أننا وصلنا إلى طريق مسدود بصدام القداسة ، فهناك ما يشبه الإجماع الإسرائيلي على رفض حق العودة ، باعتباره إجهاضاً للطبيعة الدينية للدولة ورفض التسليم بالسيادة الفلسطينية على الأقصى بدعوى وجود الهيكل ؟

علينا أن نقرأ استطلاعات الرأي الإسرائيلية بانتباه شديد . . خذ مثلاً استطلاعات الرأي حول التنافس بين المرشحين لرئاسة الحكومة الإسرائيلية (باراك وشارون) . . القراءة المتسرعة للاستطلاعات قد تثبت أن المجتمع الإسرائيلي غير جاهز للسلام ، وأن اختيار الحرب هو اختياره لشارون .

هذه هي القراءة الأولى . . ولكن في الاستطلاع نفسه نقرأ أنه في حال استبدال باراك بشيمون بيريز فإن شيمون بيريز يتقدم على شارون . . إذاً هذه قراءة تعنى أن المجتمع الإسرائيلي قد تغير وعيه تجاه مسألة الحرب والسلام .

فأى القراءتين نقرأ . .

الجدل فى المجتمع الإسرائيلى حيوى جداً ، وعلنى جداً وشفاف جداً . وكل المخاوف الإسرائيلية حول الحاضر وحول المستقبل مطروح الآن للنقاش وعلى المنصة .

- لكن الانتفاضة أحدثت تغييراً ما ؟

بالتأكيد فهى لم تكن كلها عبثية ، كما يدعى البعض ، فهناك بعض المحرمات فى الديانة السياسية الإسرائيلية تم تخطيها ، على سبيل المثال موضوع القدس العاصمة الأبدية الموحدة لدولة إسرائيل . . هذا كان إجماعاً وكان شبه ديانة سياسية . . الآن فكرة تقسيم القدس مطروحة للبحث . . صار هناك جاهزية على مستوى الوعي الإسرائيلى بقبول تقسيم القدس . . هذه نقطة كانت تعتبر من المقدسات التى لا تخترق .

وهناك موضوع (المستوطنات) . . أصبح هناك تيار كبير فى إسرائيل يقبل التخلي عن المستوطنات السياسية ، على الاحتفاظ بالمستوطنات ذات الحيوية الأمنية .

أما موضوع اللاجئين فهو أصعب المشكلات . . لأن هناك ما يشبه الإجماع خاصة من المثقفين والكتاب الإسرائيليين على أن حق العودة يعنى القضاء على الطابع اليهودى الإسرائيلى . . لكن الحقيقة أن هذه الدولة لم تكن أبداً نقية طيلة تأسيسها . . بها الآن مليون عربى وأكثر من مائة ألف غير يهودى . . إذا هى منذ البداية تحمل جنين (ثنائية القومية) . لكن مشكلة حق العودة بالنسبة لهم ، هى مشكلة تتعلق بنظرتهم إلى أنفسهم . . وإلى أنهم غير مسئولين عن تهجير الشعب الفلسطينى . .

وهناك بعض الآراء تدعو لأن تتحمل إسرائيل جزءاً من المسؤولية عن مأساة الشعب الفلسطيني ، وبعضهم يدعو إلى تقديم اعتذار كبديل لتحمل تبعات هذه المسؤولية . . لكن لا يرضى الشعب الفلسطيني وهم يدعون أن المطالبة بحق العودة لدى الفلسطينيين ، هي عودة إلى الماضي ، متناسين أنهم عادوا إلى ألفى سنة إلى الوراء . . أى إنهم يطالبون بحق العودة إلى الوراء فقط لليهود .

المسألة لها أكثر من أداة قياس . . لكن فى اعتقادى أن المشكلة الأساسية و ، التى تجعل السلام مستحيلاً هى مشكلة اللاجئين . . طبعاً عندما يطالب الفلسطينيون بها ، فهم لا يعنون أن ٤ ملايين فلسطيني سيعودون ، ولكن من الناحية المبدئية هذا الحق مقدس .

الانتفاضة .. قوة الروح

- رغم انعدام تكافؤ السلاح حققت الانتفاضة كثيراً ، من أين لها تلك القوة .. ولكن كيف نضمن استمرارها وتقويتها ؟

أخطر شيء على الانتفاضة أن نطالبها بأن تتحول إلى جيش نظامي ، وأن تحتكم إلى سلاح التفوق الإسرائيلي . . لأن الاحتكام إلى هذا السلاح يضمن نتائجه .

الانتفاضة محكومة بأن تكون حركة شعبية تعبر عن نفسها بالوسائل المتاحة . . أما الاحتكام لخوض حرب نظامية ، فذلك هو الانتحار الذى تريده إسرائيل .

قوة الانتفاضة هي قوة الإرادة والروح الفلسطيني هي قوة العناد . . لأنه لا سلام مع الاحتلال ، ولا سلام قبل التحرر . .

واستعداد الشعب الفلسطيني لكل هذه التضحيات رغم القوى غير المتساوية ، ورغم الإسناد الإقليمي الهش والموقف الدولي والأوروبي والأمريكي المخجل . . . حيث إسرائيل هي قيمة فى الوعي الغربى . . . هي نوع من القيمة ، هي ليست دولة . . . هي قيم هي معنى هي فوق أية اعتبارات إنسانية وتاريخية . . . هي فوق التاريخ هي رغم التاريخ ، وبالتالي هي منزهة من أى محاكمة ، أو نقد فى الوعي الأوروبي .

بهذه الشروط ، الشعب الفلسطيني يخوض معركة غير متكافئة وليس له من مفر أنه يصارع بقدر ما يملك من أدوات الصراع كنوع من التعبير عن إمكانية تغيير المحيط من حوله وتغيير الوعي الإسرائيلى والوعي العربى والوعي الدولى . . . هو لا يفعل أكثر من إخصاب فكرة أو تقديم رسالة أو إحراج العالم .

- منذ بداية مسيرة التفاوض يطرح الموضوع سياسياً (كصراع حدود) بينما ثم رؤية غالبية أخرى حول (صراع الوجود) ... كيف ترى علاقات الصراع ؟

المفارقة أن الوجود المهدد هو الوجود الفلسطينى ، وبالتالي تثبيت الوجود الفلسطينى والدفاع عنه هو المهمة الأولى . . . وعلينا إذا كنا مصرين على صك المصطلح (صراع وجود) أن نعرف أنه صراع وجود الشعب الفلسطينى . . . لكن الوقوف طويلاً أمام هذه المعادلة لا يفيد لأن هناك مفارقة دائمة ، وأنت تبحث عن حل للمشكلة الفلسطينية . . . أنت محكوم بالبحث عن حل للمشكلة الإسرائيلية .

قدر الفلسطينى وهو يبحث عن حضوره فى تاريخه ، حضوره على جغرافيته أنه مطالب فى الوقت نفسه أن يطمئن المصير اليهودى . . هذه هى المفارقة أو اللعنة التى لحقت بالفلسطينيين . . أنهم لا يستطيعون أن يتقدموا بحلول عملية لتثبيت حقوقهم ، إلا إذا رافقتها حلول أخرى من أجل طمأننة الإسرائيلى بأن وجوده غير مهدد . .

إن علينا أن نطمئن الإسرائيلى بأن وجوده غير مهدد ، وليس علينا أن نقول له إن وجوده مهدد !

- ماذا عن رؤيتك للصراع فى جانبه الثقافى ؟

إن نبقى محصنين ضد قبول الرواية الإسرائيلىة ، الصراع الثقافى حول فلسطين . . الإسرائيليون يتصرفون باعتبارهم عائدین إلى وطنهم ، ونحن نقول إننا لم نولد فى وطن آخر . . الصراع الثقافى هو الشرعية التاريخية لكل طرف منا . . إحدى مآسى إسرائيل الكبرى إنها غير واثقة من الشرعية العملية والسياسية التى حصلت عليها . . إنها بحاجة إلى شرعية تاريخية وهذا ما يفسر جنونهم بالهيكىل والحفريات حوله أنهم مهووسون بالبحث عن شرعية أركولوجية لم يجدوها .

- والفلسطينيون ؟

نحن مبرهنون بعلاقتنا فى بلادنا وعلاقتنا بتاريخنا إلى حد الكسل . . سنوات طويلة لم نجد أنه من الضرورى أن ندافع عن حقنا دفاعات أركولوجية وثقافية وتاريخية ، من فرط ما نحن مشبعون بشرعية . . لكنهم يجروننا إلى مناقشة حول الماضى . .

نحن فى مرحلة نقاش سياسى محض ، وكثير من الأسئلة الثقافية الكبرى من مصلحتنا السياسية تأجيل وضعها على جدول أعمال السياسى لأنها معرقله . . ثم لماذا على الثقافة أن تبحث عما يعرقل إمكانية حل هذه المشكلة . . ولكن بالطبع يجب على الثقافة أن تدافع عن قناعة المجتمع العربى . . أن تدافع عن خطر قبوله بالرواية الصهيونية للتاريخ .

- ألا ترى أن هذا الهدف يحتاج إلى مسافة يأخذها المثقف بعيداً عن السلطة التى تتفاوض ؟

لابد من ذلك . . يجب ألا نجر الثقافة إلى مائدة المفاوضات ، مع أنه يجب ولا بد للمفاوض من خلفية ثقافية . . يجب عليه معرفة المصطلحات والمفاهيم التى يطرحها المفاوض الإسرائيلى . . وإلا ما معنى هذا الجنون بما يسمى بهيكل سليمان .

لا تصدق المسألة الدينية . . هناك البعض متدين ، ولكن (الدين) يستخدم لديهم من أجل تلافى تلبية مطالب الفلسطينيين بحقوقهم . لكن المثقف ليس مضطراً لقبول مثل هذه المقترحات ، ولا مضطراً فى التفاوض حولها . . لكن الحوار الثقافى لا يزال بعيداً .

لا هنا .. ولا هناك !

- ما هى المسافة بين محمود درويش والسلطة ؟
من المعروف أننى لست فى السلطة .

- البعض يراك سلطة بحد ذاتك ؟
سلطة أدبية .

- وربما أيضا سلطة سياسية ؟

لا أنا لست فى السلطة ، كذلك أنا لست فى المعارضة . . المعارضة المؤطرة المشكلة ، أنا لست هنا ولست هناك .

ولكنى كثير الإصغاء إلى دوافع واعتبارات السلطة فيما يتعلق بالمسألة الوطنية ، وليس مسألة الإدارة . . فلدى كثير من النقد والتحفظ وحتى التجريح للجانب الإدارى للسلطة تحديداً ، فيما يخص علاقتها بالديمقراطية والفساد . . لكن فى المسألة الوطنية مازلت أرى أن السلطة تعبر حتى الآن عن مشروع وطنى ، يخص الشعب الفلسطينى ، وذلك بدفاعها عن حقوق الفلسطينين بهذا الشكل برغم كل الضغوط التى تتعرض لها . . لازالت السلطة تمثل البرنامج الوطنى للشعب الفلسطينى . . وربما حين تستقل أو تنجز مشروعها يكون هناك حديث آخر .

ستحاكم السلطة المحاکمة النقدية الحقيقية عندما توقع على اتفاق لا يرضى . . وقد يكون ذلك سريعاً ، لكن حتى هذه اللحظة لا أستطيع أن أحكم على السلطة بأنها قد تخلت عن الحقوق الوطنية الفلسطينية .

- لكنك كشاعر تجابه شاعريك وغنائيتك وأسطورتك وجمهورك دائماً فلماذا لا تجابه السلطة أيضاً ؟

ربما لأننى اقتربت من الشيخوخة . . ربما لأننى أريد أن أكسر هذه الأسطورة . . أنا ولا مرة ادعيت أننى صاحب مشروع اجتماعى

للتغير . . ولا مرة ادعيت أنى راديكالى .

- شعرك يقول إنك راديكالى ؟

إذاً من الأفضل أن نختار . . من الأهم الشاعر أم قصيدته . . الأغنية أم المغنى .

أنا رهانى الحقيقى ليس على السياسة أو على النضال الاجتماعى . .
رهانى الحقيقى على الشعر وأرجو أن تحاصر محاكمتى فى هذا المجال .
أنا لم أدع أننى مناضل كبير ، لم أدع أنى (عنتر) ، لم أدع ذلك حتى
فى مقالاتى ، لا توجد هذه المصطلحات لا أكتب هذا . . ربما لأنى
لا أعلق أى أمل على السياسى . . ربما لأنى لا أومن بالعمل السياسى .
أنا أستحق النقد العنيف من المثقفين تجاه هذا الموقف . . لكن هذا
لا يعينى . . فقد مررت بتجارب قد تكون غنية وقد لا تكون ، مررت
بمراحل كثيرة فى حياتى ، ووصلت إلى استنتاج أنى أضعت الكثير من
الجهد والوقت على ما ليس من اختصاصى . . وأنا من الذين يدعون إلى
أنه آن للفلسطينيين أن يتخصصوا ، كنا كلنا متخصصين فى قراءة ٤٢٤ ،
وكنا متخصصين فى المفاوضات . . كل النشاط الثقافى والإبداع
الفلسطينى منصب فى مجال تخصص السياسى ، والسياسيون أحياناً
يتحولون إلى شعراء .

لقد وصلت إلى استنتاج إنى أريد أن أكون شاعراً فقط إذا أمكن . .
وكلمة أريد أن أكون شاعراً إذا أمكن لا تعنى أنى منفصل عن الواقع أو
عن المجتمع . . لكن رهانى النوعى هو رهان إبداعى ، وليس رهاناً
ثقافياً أو سياسياً .

- الأمور ليست منفصلة بهذا الشكل ؟

إذاً أنا أعبر ، فالشاعر لا يكتب من فراغ . . ونشاطى السياسى والفكرى والاجتماعى والثقافى . . كله بالقصيدة ، ولا أرى أنى قادر على أن أمارس عملاً خارج مجال الشعر . . أنا غير مؤهل . . ربما . .

هذا ضد كل كلام عن المثقف . . فالمثقف يجب أن يكون دائم التعليق والانخراط فى أى مشكلة سياسية أو اجتماعية أو وطنية . . لكن كل ذلك أكرسه فقط فى العمل الشعرى .

- لكن وجودك إلى جانب السلطة ومعها هو تحميل لها ؟

السلطة من ؟ هم أصدقائى . . لدى علاقات ممتازة بالجميع على مستوى السلطة ، وعلى مستوى المعارضة غير الأيديولوجية . . أنا علاقتى ممتازة مع كل الناس ما عدا حماس . . أنا لا أعرف أحداً من حماس .

لا أريد أن أقول إنى رجل توازنات ، ولكنى رجل حوار مع الجميع . . أما فكرى وثقافتى ومواقفى فيعبر عنها شعرى .

- هل تضغط علاقاتك الشخصية وصدقاتك على مواقفك ؟

ربما . . هذا سؤال شديد الذكاء . . لكن أنا لا أستطيع أن أستم ياسر عرفات . . أخجل منه . . عندما استقلت بعد أوصلو . . مارس على ضغوطاً شديدة . . وكنت عندما أذهب إلى النوم ، أحس بالخرج كيف أخيب رجل مثل أبى ؟ وأشعر بعذاب حقيقى بين الموقف الأخلاقى وموقفى السياسى ورفضت أن أستم . . ومارس على ضغوطاً كثيرة لأن أدخل معه إلى فلسطين ، وأن أكون وزيراً للثقافة وهذا معروف . . مارس على ضغوطاً لا تحملها بشر ، وكنت أيضاً ممزقاً ، ليس لأنى متحير فقد كنت حاسماً ولكن لأنى لا أريد أن أخيب هذا الرجل . . بيننا محبة وصدافة وعشرة طويلة . لهذا إذا كان عندى رأى مضاد له ،

أقوله بشكل مباشر ، ولكن لا أعلنه . . يمكن هناك نوع من المجاملات
أو من الحرص على تاريخه .

- أو تعالجه بالقصيدة ؟

أو أقوله بالقصيدة . . لكن أنا لست رجل مواقف يومية . . لست
رجل أعلام ، لست رجل مزاودات . . لكن هذه العلاقات تجعلني
أخرج . . وعلى سبيل المثال إذا كان هناك شخص معتقل أسهل شيء أن
أوقع بياناً ، لكن أنا أذهب وأحل المشكلة . . أتحدث مع المسؤولين
السياسيين أو الأمنيين . .

المثقف ربما يريد أن يسجل موقفاً لا أن يحل المشكلة المثقف . .
ربما لا يحب أن يحل المشاكل ، ولكن يحب أن يأزم المشاكل . .
قد أكون على خطأ . . قد يكون في ذلك نوع من القبلية أو
العشائرية . . لكن أنا لا يعنيني تسجيل المواقف .

- هل تكون قصيدتك أكثر ثورية منك ؟

ربما . . مع أنني أحاول أن أخفض صوت قصيدتي . . أحاول أن أبرّد
لغة القصيدة لأسباب جمالية . . هذا لا يعني أنني أتخلى عن فهمي
ومواقفي . . لكنني أحاول أن أجد حلولاً أخرى ، وهذا لا يقتل ما تشحن
به القصيدة . .

أنا مأخوذ وخاصة أن لدى إحساساً ، تأخر بالوقت . . لدى شعور
إنه لم يعد هناك وقت لأنجز شيئاً ، ومن المعروف أن أشد خصوم شعري

هو أنا . . وبالتالي فأنا أسابق الزمن ؛ كي أطور ما لم يتح لى أن أطوره
فى السابق .

كتبت وصيتى

- فى قصائدك الأخيرة (جدارية) (محمد الدرة) يعود صوتك مرة أخرى
إلى غنائية كنت حريصاً على تجاوزها وتعود إلى بعض أدواتك الجمالية
التي كثيراً ما جابهتها فى شعرك ؟
أين يظهر هذا الرجوع ؟

= بالجدارية ..

كيف ؟

- فى القصيدة الديوان ، فى بعض الإيقاعات المستخدمة ، وبعض المفردات
التي سبق لك استخدامها بل وبعض الصور الشعرية ، فى الغنائية ، فى
استخدام الأسطورة .

لا يوجد مشروع شعري لشاعر فى خط مستقيم أو فى خط بياني
متصاعد . . البحث عن الشعر يأخذ عدة مستويات ، عدة أشكال
وإيقاعات . . ولا يوجد اقتراح نهائى ، وذلك من حسن الحظ ، وإلا
كان انتهى الشعر نهائياً .

فى قصيدة (جدارية) كنت أكثر انتباهاً أولاً للمسألة (الوجودية)
وليس للمسألة (الشعرية) وكنت أعتقد أنى أكتب وصيتى ، وأن هذا هو
آخر عمل شعري أكتبه . . ومادمت أكتب وصيتى الشعرية فعلى أن
أستعير وأستخدم كل أسلحتى الشعرية فى الماضى وفى الحاضر . . هذا

يفسر الملاحظة الدقيقة أن هناك تقاطعاً بالقصيدة ، هي عودة إلى إيقاعات سابقة وعودة إلى مفردات سابقة ، وعودة إلى نفس سابق . . لكن القصيدة في كليتها ليست كذلك . . لأن هناك مناطق بالقصيدة ميتافيزيقية . . لقد حاولت أن أضع في هذه القصيدة كل معرفتي وأدواتي الشعرية معاً باعتبارها (معلقتي) . .

وإذا كان لا بد من تلخيصي فلتكن (جدارية) هي الملخص . . فالقارئ القادم ليس لديه الوقت لقراءة أى شاعر ، حتى ولو كان ش كبير . . سيختزل أى شاعر بنص ما ، خاصة أننا مقبلين على زمن الإنترنت . . لقد كنت أرشح هذه القصيدة لتكون هويتي الشعرية . . ومن هنا يمكن أن يكون هناك بعض رجع الصدى .

هذا على مستوى الهم الشعري . . لكن كان هناك شيئاً آخر ، هو الاشتباك مع الشعر العربي ، ووضعته في علاقته بالقارئ . . الشعراء عاجزين عن حل المعادلة بين أنا (الفردية) وأنا (الجماعية) . . لقد دخلنا في حادثة . . فهم منها عربياً أن ليس لها علاقة بالواقع ولا بالتاريخ ، وهذا عكس مفهوم الحادثة الأصلية .

- ماذا تعنى بالفهم العربى للحادثة ؟

الحادثة العربية الآن تعرف بتعريفات بسيطة جداً ، وهي :

- ١ - التى تعبر عن ذات الشاعر وليس لها علاقة بالواقع .
- ٢ - ممنوع استخدام العواطف . . هي ذهن مجرد .
- ٣ - ممنوع أو يجب أن لا يكون لها زمن ولا مكان . . أى إنها لاتاريخية .
- ٤ - وهذا هو الأهم أن تتحرر كلياً من الإيقاع والوزن .

أى قصيدة تتنافى مع هذه الشروط التعسفية فى تعريف الشعر الحديث كانت تعتبر غير حدثية أو تقليدية .

الآن الحدثية تكفر بنفسها . . هناك مراجعة خاصة للعلاقة بين النص والواقع . . بين الشاعر والقارئ . . يجب أخذ الناس بعين الاعتبار .

للقصيدة حياتان : حياة كاتبها والحياة التى يحددها قارئها . . هناك دائماً مستويات للقراءة . . تبقى صالحة لأنها تعبر من هذا الزمن التاريخى إلى زمن تاريخى آخر ، وإلا كيف تفسر بقاء قصائد مناسبات عديدة . لأنها لم تكن مناسبة بالمعنى الوظيفى ، ولكن المناسبة لم تكن إلا ذريعة لكتابة القصيدة . . الذريعة سقطت لكن النص الشعرى بقى . هناك أسئلة تقليدية هى التى ستنفذ الحدثية الشعرية ، وتحل بعض المشاكل .

- هل أنت مكون بهذا الهاجس ؟

تماماً . . صحيح عندما أكتب لا أفكر بأحد ، فليس صحيحاً أن القارئ رقيب . . لكن إذا كانت ذاتى غير ممتلئة بالآخر صارت القصيدة مغلقة .

قليل من التواضع

- ما تدافع عنه هو بالضبط ما يأخذه عليك الحدثيون ؟

وأنا ماذا أكون بتعريفهم . . لست شاعراً حدثياً !!

- ربما .. !!!

نريد تواضعاً متبادلاً لكل أصحاب الاقتراحات الجمالية ، فكثير من

شعر ما بعد الحداثة هو مكتوب فى زمن شعر الانحطاط العربى . . هذه الألاعيب والبهلوانيات الشكلية موجودة دائماً . . ليست ابتكار القرن العشرين . . هذه حادثة عصر الانحطاط . . لكن أنا أيضاً ضد شعر الحماسة . . ضد شعر الخطابة . . ضد شعر الإثارة . . أنا لا أستخدم أدوات الجمالية من أجل إثارة أحد ، ولكن من أجل إحياء القصيدة وربطها بتاريخيتها . . فأنا من أنصار الرأى بأن لا تطور ولا حادثة فى الشعر العربى ، إلا من داخل تاريخه ، وفى علاقته بالشعر الإنسانى العام .

ثم ما الداعى لأن نتخلى عن ثروات إيقاعية وجماليات اللغة العربية . . مقابل ماذا ؟

لماذا أستبدل الموسيقى بالنص ؟

لماذا أستبدل البلاغة بالركاكة اللغوية ؟

لماذا ؟ ولخدمة ماذا ؟

لكى أقول إنى حديث . . هذه ليست الحداثة .

كما أننى لا أطلب عضوية فى نادى الحداثة الشعرى . . أنا أعتبر نفسى عضواً مؤسساً .

- فى قصيدة (محمد الدرة) كسرت الموقف والحالة الساخنة الواقعية بمفردة غريبة عن المشهد والشارع .. هكذا بدت (حمامة بيكاسو) مفردة مقحمة ؟

القصيدة موضوعية حاولت أن أدعى فيها الحياء ، ولم أقدم عواطف كبيرة ، وأعتقد أن هذا النوع من الحياء مؤثر جداً . . لكن هناك دلالة

فكرية فى استخدام حمامة بابلو بيكاسو . . فالطفل بالقصيدة لم يكتب على الجدران أن حريتى لن تموت ، فهو ليست لديه حرية وليس لديه سلام . .

حمامة بيكاسو هى أشهر رسم فى القرن ٢٠ للسلام ، وهى إشارة معنوية أفضل من أن أقول (ليس هناك سلام) إذا قلت ذلك سميت الشئ باسمه ، ولم تعد هناك استعارة ، وأنا أعتبر الاستعارة هى أساس الشعر ، هى معنى المعنى فى الشعر .

- كيف قمت بتبريد القصيدة ؟

باللغة وبالصور . . هناك استبعاد كامل لتسمية العدو ، واستبعاد كامل لاستخدام كلمة القتل والاغتيال والرصاص . . كل أدوات الجريمة شبه مستبعدة للتدليل على بساطة المطلوب .

- خاصة وأن لديك الصورة التليفزيونية ؟

هذه منافس كبير فالكل شاهد المشهد ، فلا أستطيع أن أصوره تصويراً سينمائياً . . بهذه المناسبة ، أتساءل لو كانت هناك C.N.N فى عصر هوميروس هل كان يكتب (الإلياذة) !! المؤكد أنه سيكتب (الأوديسا) لأنها رحلة داخلية ، أما حرب طروادة والمركة كلها فرجاء لا .

- التقنيات الحديثة تغير من مفهوم الشعر ؟

بالتأكيد . . التقنيات الحديثة تدفع الشعر إلى مجال تخصص . . الآن الكاميرا تحمل أعباء كثيرة عن القصيدة والشاعر . . وبالتالي لم أكن

بحاجة لوصف المشهد . . أنا بطيء فى الكتابة . . منذ أكثر من ٢٠ عاماً لم أكتب قصيدة فى يوم واحد ، إلا هذه القصيدة (محمد) ، ولم أكن أريد أن أكتب قصيدة ولكن كنت أكتب شهادتى .

أنا شاعر محتشم

- هناك ظاهرة الكتابة الشهوانية . . كسر التابو والخروج الجنى والدينى . .
أظن أن لك موقفاً من هذه الكتابة ؟

مبدئياً لا أعترض على حرية المبدع فى كسر أى تابو ، ولكن ضمن مشروع إبداعى حقيقى . . أما إذا كان هذا الكسر للاستفزاز فقط ولا يفيد العملية الإبداعية ، وليس جزءاً عضوياً من النص ، أو من نسج الرواية أو القصيدة يصبح أمراً مجانياً . . صحيح أنا لا أكتب هذه الموضوعات . . أنا شاعر محتشم . . لكن أحب الشعر (الإيروسى) ، ومن أجمل النصوص الأدبية هى النصوص الإيروسية . . ولكن لا أحب (البورنو) أو الأدب الإباحى . . ليس لأن لى موقفاً مضاداً للجنس ، ولكن دفاعاً عن الإثارة الجنسية أفضل (الإيروسية) على (الإباحية) . . حتى من الناحية الشهوانية ، العمل الإيروسى يخدم أكثر من العمل الإباحى . .

- بأى معنى أنت شاعر محتشم ؟ ولماذا أنت شاعر محتشم ؟

لأنى خجول . . شعرى فى المرأة ليس شعراً (استعمالياً) . . المرأة فى شعرى ليست موضوعاً لإثارة المتعة ، ولكنى أتعامل داخل النص باحترام كامل للمرأة . . لإنسانيتها وكيونيتها ولشخصيتها المستقلة التى أعترض

على ذوبانها فى الرجل ، كما أعترض على ذوبان العاشق فى العاشق . .
أعتقد أنه دائماً يكون هناك كائنات غير متحدين ، متجاوران . .
متحاوران . . لأن الاتحاد تلاشى . . ولذلك أعامل المرأة بأدمية وباحترام
داخل النص .

– وهل الكتابة الإباحية لا تحترم المرأة ؟

الكتابة الإباحية لا تحترم المرأة . . الإيروسية أمر آخر ، فالإيروسية
تظهر جماليات تسكن فى الظلال .

العحلية الجنسية لا تتم بالشارع ، لابد من ظلال ما ، من تكتم ما ،
من سرية ما ومن إثارة ما ، وتسمية الأشياء بأسمائها تقتل المتعة .

– هناك كتابات إباحية عديدة جديدة بالاهتمام، وهى ضمن مشروع إبداعى
وثقافى .. مثل كتابات هنرى ميللر ؟

قلت أنا لا أعترض على ذلك . . لكن ضمن فكر ما وضمن مشروع
حقيقى . . لكن المشكلة فى إبداعنا العربى أنه لا يقوده فكر واضح وليس
جزءاً من منظور ثقافى . . هو ذلات عواطف ، ذلات قلم ، نزوات
هفوات . . ليس جزءاً من منظور ثقافى يريد أن يحدث تنويراً ، ولكن
دائماً هناك (مجانية) .

أغلب الشعر العربى الحديث لا يقوده فكر أو فلسفة ، ولكن يقوده
ما يسمى (هبط عليه الوحى) . . المشكلة لدى بعض الكتاب العرب
أنهم شديدو التقديس لعفويتهم ، يعتبرون الكتابة الأولى هى الكتابة
الأخيرة . . لا يؤمنون بالتنقيح أو بالتحريير أو بإعادة الكتابة . . ومادامت
جاءت هكذا عفواً فلتبقى هكذا .

- وكيف تتعامل مع عفويتك ؟

أنا لا أقدم ولا أعلق أهمية على أى نص أكتبه للمرة الأولى ، لابد أن أكتبه ٥ أو ٦ مرات .. وأتخلى عن كثير من الأوراق ..

الكتاب الغريون أصلاً لا تصدر كتبهم كما كتبوها .. هناك دائماً محرر بدار النشر ، يختصر ويختزن ويقدم ويؤخر ويبدل .. أما نحن فليس لدينا تقاليد (التحرير) .. ولو لدينا هذه التقاليد ، لكان كثير من أعمالنا قد شطبت أو اختصرت ، ولكان الكثير من شعرنا قد أبيع .

نحن لدينا إيمان (بالليقة) أكثر مما ينبغي ، لدينا إيمان بغريزة الكتابة أكثر من وعينا .

لكن مبدئياً حكمى على العمل الأدبى هو حكم أدبى بغض النظر عن أخلاقياته .. بل وأصعب شئ وأخطر شئ هو تمليط الأخلاق رقيباً على الأدب ، شرط أن يكون أدبياً .

كما أننا ونحن نهاجم سلطة الرقابة الرديئة ، علينا أيضاً أن نتقّد الأدب الرديء .. ولا يجوز أن ندافع عن الأدب الرديء بحجة أن هذه هى حرية التعبير .

- جئت إلى مصر هذه المرة فى ظل أزمة ثقافية مصرية ، تمت خلالها مصادرة بعض الكتب ، وقدم وزير الثقافة قراءة أخلاقية للروايات ، وما تبع ذلك من تداعيات .

أعتقد أنه يجب أن نفصل بين حرية الكتابة وحرية التعبير ، وحرية تدخل السلطات فى هذا الأمر .. القاضى الوحيد الشرعى فى هذه المسألة هو الضمير الثقافى .. هو الذى يقبل أو يرفض ، وهو الذى يحجب الشرعية أو يعطيها .

أما المسألة الأخلاقية وهى بالفعل مسألة معقدة فى العالم كله . من له سلطة تقييم أخلاقية الأدب ؟

أولاً يجب أن ننزع الأخلاق عن الأدب . . وضع الأدب أمام الأخلاق يدخلنا بتأويلات لاحد لها ؛ خاصة وليس هناك مرجعية . . فلكل واحد فهم مختلف عن الآخر . . كذلك فى فهم الحرية مختلف عن الآخر هذه أمور أولية . . يجب أن نتفق على أن الكاتب لا يتدخل فى عمله إلا الكاتب أو القارئ . . ليس القضاء وليس الرقابة وليس وزارة الداخلية .

- أيضاً وليس وزارة الثقافة ؟

وزارة الثقافة يحق لها التدخل فى منشوراتها ، كما قال نجيب محفوظ . . إنها كناشر لها الحق فى أن تقبل أو ترفض ، ولكن ليس لها حق أن تطبع وتصدر . . أنا أعرف ناشراً فرنسياً (جيروم لاندو) صاحب (منشورات منتصف الليل) قال لى إنه لم يطبع أى كتاب داخل داره كما كتبه مؤلفه . . إنه يتدخل دائماً ، فيما عدا أعمال الفيلسوف (جيل دى لوز) الوحيد الذى طبع كتابه كاملاً . . حتى صمويل بيكيت كان ينقح له طبعاً بالتشاور معه .

جاءته مرة (مارجريت دورا) بروايتها العاشق ، وكانت رواية ضخمة من ٣٠٠ صفحة . . قرأها فى ليلة واحدة ، ثم قال لها روايتك كبيرة يمكنك أن تبني روايتك من جديد من هذه الصفحات العشر . . بالطبع غضبت مارجريت . . ولكنها عملت باقتراحه ، وكتبت رواية (العاشق) بصورتها الحالية ، وباعت مليون نسخة . . ممكن لناشر آخر ألا يتدخل . . هى أمور نسبية .

- وهل تقبل تدخل ناشر فى قصيدتك بالحذف والاختزال والتبديل والتأخير؟

أنا أتوسل أصدقائى وناشرى وزملائى - وأحياناً ناس لا علاقة لهم بالشعر - أن يبدو رأياً فى قصائدى قبل النشر . . بل إنى شديد الإصغاء لرأى الصديق العادى غير المتخصص ، كما أنى شديد الاستجابة للنقد ، ولكن ليس بالإكراه .

عين المحب وعين الرقيب

- المقصود القراءة بعين المنع والمصادرة والحذف .. هل تقبل من ناشر حذف مفردة أو مقطع من القصيدة لأنها تخدش الحياء العام ؟

أنا ضد هذا . . المهم دائماً من هو مصدر القراءة ، فقد يضىء لى صديق أو حتى خصم أموراً ما . . قد يرى أن هذه المفردة قد تجرح شيئاً ما ، لكن أنا الحكم الوحيد وأنا صاحب القرار الأخير . . أنا أحب أن أخلق ما يشبه إجماعاً بسيطاً حول نص ما ، ولكن لا أتحرق من التأثير بالآراء التى أستمع إليها من أشد الخصوم .

- وماذا لو جرحنا القصيدة ..

هل تؤمن بأن هناك ثوابت بالمجتمع على القصيدة ألا تتجاوزها ؟

أحياناً جرح الحياء العام يكون مطلباً أخلاقياً ومفيداً ، فالأدب هو تاريخ من التمرد على أخلاق السادة واستبدالها بقيم جديدة . .

فقط أقول إذا كانت هناك مجانية ، أى ليست جزء من العملية الإبداعية والبحث عن قيم أفضل ، يكون التخلّى عنها أفضل .

- تم مصادرة أشعار أبي نواس وهى خروج ضمن مشروع إبداعي ؟

أبو نواس يحيرنى . . هو شاعر كبير من أهم الشعراء ، الذين أحدثوا ثورة فى حقبة تاريخية محددة من تاريخ الشعر العربى ، ولكن بعض الأبيات الشعرية التى تصف عملية اللواط ، أعتقد أنها ليست من إنتاج أبى نواس ؛ لأنها جماليا وكصياغة شعرية تتنافى مع إيقاع أبى نواس الشعرى ومع منظوره . هذه (البذاءات) إذا كانت مثبتة فى التراث . . فليس من حق أى معاصر أن يعبث بها .

- حتى ولو خدشت الحياء العام ؟

حتى ولو خدشت الحياء العام . . أبو نواس صار له مئات السنوات يخدش الحياء العام ، ولم يثر عليه أحد . . غزلياته وخمرياته وإباحياته كتبت فى العصور الذهبية للدولة الإسلامية فى العصر العباسى .

إذا كلما كانت الدولة أو الحضارة فى أعلى مراحل تقدمها . . كانت أكثر تسامحاً وقبولاً للتعددية واللعب بالأخلاق والقيم . . وكلما هبط المستوى الثقافى العام وحتى المستوى السياسى فى المجتمع ، أصبح أكثر تزمناً وأكثر اعتداء على ماضيه وتاريخه .

بالطبع التراث ليس مقدساً . . لكن يجب ألا يمس .

- تسمح بخدش الحياء العام للكتب التراثية ، ولا تسمح بذلك للكتب المعاصرة ؟

هذا تعبير فضفاض . . فمن يحدد الحياء العام .

- هذه عبارة أخلاقية كيف يمكن تطبيقها على الأدب ؟

هناك حياء . . بل عدة مفاهيم للحياء أن يدور نقاش حولها ، فهذا يجب أن يتم ، أما خدش الحياء فلا . . أى إن الممنوع هو المنع .

- هناك ظاهرة عكسية وهى التركيز على هذه الكتابات الممنوعة . . مثل إصدار الكتابات المحرمة لأبى نواس أو غيرها من النصوص الممنوعة . . ألا ترى أن هذا يمثل وجهاً آخر من وجوه التوظيف الأخلاقى للأدب ؟

هذه اعتبارات تجارية . . أبو نواس يجب أن يؤخذ بكليته . . لا أستطيع أن آخذ منه إباحياته أو فقط خمرياته ، ولكن يجب أن يؤخذ بمجمل أعماله . . الوقوف أمام إباحياته لا يثبت أنه شاعر كبير ، أو أنه قام بأى ثورة . . أنا أعتقد أن أبو نواس كان يلعب ، كان يعبث . . وهذه مسألة تخصه ، أما نحن وطالما أن النص قد تم تسجيله والذى سجلته هى الدولة العباسية . . فكيف نمارس عليه الرقابة بأثر رجعى .

* * *